الأسواق الداخلية فى مصر البيزنطية

زبيدة محمد عطا

تمهيد :

تمتعت مصر بمركز تجارى هام جعل لها مكانة فريدة فى التجارة العالمية خلال العصرين الرومانى والبيزنطى .

ولم يكن النشاط التجارى خلال العصر البيزنطى مقصورا على مجال التجارة الخارجية بل ان الحركة التجارية الداخلية كانت لاتقل أهمية وازدهارا فيذكر استرابون ان صادرات مصر فاقت وارداتها . (١)

وعُدت مصر أنذاك من الدول القلائل التى تستطيع الاكتفاء الذاتى بما تنتجه وان عانت نقصا فى الأخشاب والمعادن واتخذت تجارة البحر المتوسط مسارها من الاسكندرية الى داخل البلاد عن طريق الميناء الخاص بها والواقع على بحيرة مريوط عبر محطة المكس فى سيخيديا (كوم النشو) شرق كفر الدوار .

أما تجارة البحر الأحمر فكانت تنقل أولا عبر ميناء ميوس هرموس رأس أبو شعر قبلى " وميناء برنيقية (مدينة الحراس) الى مدينة قفط (٢) وهيرموبولس "الاشمونين " الى أن أنشأ "هادريان "مدينة انطونيوبولس " الشيخ عبادة " فتحول اليها طريق التجارة فأصبح الطريق من ميوس هيرموس الى انطونيوبولس . وان كانت القلزم قد نهضت خلال العصر البيزنطى أهم موانى البحر الأحمر . واهتمت الادارة البيزنطية بتعبيد الطرق واقامة محطات المكوس الداخلية فى طيبة وهيرموتيثوث (أرمنت) وهيرموبولس (الاشمونين) والفيوم وسيناء ، وسخيديا كذلك قامت بتنظيم حركة النقل عبر النيل واقامة محطات مكوس نهرية فى منفيس (٣) (ميت-رهينة) وحددت أسعار الشحنات وأجور العاملين فى النقل البرى والنهرى وسيطرت على نقاباتهم وخاصة فيما يتعلق بنقل الانوتا الى الاسكندرية .

---

(١) استرابون فى مصر ، ترجمة وهيب كامل ص ٧٦

(٢) Milne . OP Cit.p. oxg 1962

(٣) p. oxy. 1650 , p, Flor . 335

وكان لكل مدينة سوق تجارى تعرض فيه بضائع شتى مصرية الصنع وأجنبية ولقد انتظم التجار أيضا فى نقابات (١) خضعت لاشراف مسئولى الأسواق .

أما عن حركة التجارة الداخلية فكانت الاسكندرية بحق لؤلؤة البحر المتوسط وأهم موانية منذ نشأتها وخلال العصرين الرومانى ثم البيزنطى وطوال تلك الفترة التى امتدت قرون لم تفقد مكانتها بل ازدادت أهميتها يوم بعد يوم وتضاءل أمامها أهمية الموانئ الايطالية مثل بيتولى وتحولت اليها الحركة التجارية فى الامبراطورية بسبب حاجة بيزنطة الى قمح مصر وتجارة الشرق .

ولم تكن الاسكندرية الميناء المصرى الوحيد فهناك عدد من الموانئ الهامة على طريق تجارة البحر الأحمر مثل القلزم ، وميوس هيرموس (رأس أبو شعر) وبرشيقية ولكن فاقتها الاسكندرية شهرة ومكانة ، فكانت بضائع الهند والصين والشرق الأقصى عامة تمر بها فيأتى لها الحرير الخام من الصين واللؤلؤ والأعشاب وخشب الصندل من الأقاليم الهندية والمر والعطور من اليمن وكان جزء من تلك المواد الخام يتم تصنيعة فى الاسكندرية (٢) ويرسل الى الغرب بعد ذلك كالأعشاب الطبية والعقاقير والأحجار الكريمة وجزء آخر يرسل مباشرة لموانى القسطنطينية ومدن الغرب بعد دفع رسومه الجمركية (٣) بل ان بيزنطة دفعت جزءا من أثمان تلك البضائع المستوردة من الشرق فى صورة منتجات صناعة مصر من المنسوجات والبردى وزجاج الاسكندرية الشهير .(٤)

ولقد سارت الادارة البيزنطية على نفس النهج الرومانى السابق فى دعم طريق مصر التجارى الى الشرق واخضاع المدن والدول التى تقع موانيها على طول الطريق الى الهند أو التحالف معها كاليمن والحبشة وهذه السياسة اتبعتها أباطرة بيزنطة من " قسطنطين الى " جستنيان " وخاصة مع ازدياد الطلب على الحرير .

---

(١) P. Oxy . 1331.

(٢) روستفتزف : تاريخ الامبراطورية الرومانية ترجمة زكى على ص ٣٣٠ - ٣٣١

(٣) ستفن رنسمان : الحضارة البيزنطية ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ص ١٩٦

(٤) P. Oxy . 2058 - 183

ولم تكن تجارة مصر الخارجية مقصورة على تجارة الشرق الأقصى بل كان هناك جانب آخر لايمكن اغفاله وهو تجارة مصر مع بيزنطة وولاياتها فقام تجار الاسكندرية برحلاتهم الى مدن الامبراطورية المختلفة فظهر التجار المصريون فى صقلية وبلاد الغال (١) بريطانيا وايطاليا واسبانيا . (٢)

وتحدد قائمة دقلديانوس تعريفة النقل من الاسكندرية الى نيقوميديا واكوبليا وصقلية وافسوس وسالونيكا . وكان أهم مايصدر لتلك الدول هو منتجات الصناعة المصرية والقمح بعد استيفاء الانونا .

أما الضريبة العينية المتمثلة فى شحنة القمح (الانونا) المصدرة الى القسطنطينية فكانت من أهم الأمور التى تشغل الدولة البيزنطية وسخرت لها العديد من الأجهزة لكى تحمل مسئولياتها والى الاسكندرية والقسطنطينية وليس أدل أهميتها انها عين آخر شحنها ٨٠٨م قام شغب فى القسطنطينية .(٣) ولقد فرض على والى الاسكندرية غرامة مقدارها صولد على كل ٣ أردب فى حالة تأخير الشحنة .

وازد هرت حركة التجارة الداخلية نتيجة لحركة التصنيع التى شهدتها الاسكندرية والمدن فى الأقاليم واستهلك جزء من نتائج تلك الصناعات داخلية كالمنسوجات والبردى والفخار والزيت . كذلك وجد جزء من التجارة الخارجية طريقه الى داخل مصر فدخرت أسواق المدن ببضائع مصرية أجنبية ، فوجدت فى أسواق اكسرنخوس بضائع وصفت فى البرديات بانها بضائع أجنبية كالأسلحة والثياب الدلماشية والطرسوسية .(٤)

أما بالنسبة للمواد الغذائية فان مصر كانت تستطيع سد احتياجاتها الداخلية ، ولم يرد ذكر لاستيراد خارجى الا فى بعض الأنواع الجيدة من بيت الزيتون والنبيذ . (٥)

---

(١) P. Oxy. 192 4, p. Lond. 1254

(٢) P . Oxy . 1924 - 1962

(٣) Bury : Later Roman Empire P. 217

(٤) P. Oxy. 1026

(٥) P. Oxy. 1924 , 1862.

ولقد انتظم جميع التجار فى الأسواق وفقا لنوعية تجارتهم فى نقابات خاصة لكل طائفة تحمل رؤساؤها المسئولية أمام الدولة متمثلة فى مسئولى الأسواق

ولقد اتخذت التجارة الداخلية مسارها عبر طرق برية مستخدمة الدواب حيث تكونت رابطة لسائقى دواب الحمل ، كما اتخذت مسارا آخر عبر النيل وهو الغالب وهؤلاء انتظموا فى نقابة الملاحين (١) النهريين . ولقد اهتمت الدولة بالطرق الداخلية اهتماما كبيرا وأقامت حاميات عسكرية على الطرق الرئيسية وفى نفس الوقت أقامت مناطق مكوس تجارية تجبى فى بعضها مكوس على التجارة وفى البعض الآخر على التجارة مرور الأفراد .

الأسواق الداخلية :

كان السوق أكثر أجزاء المدينة أهمية وحيوية ونشاطا وكان فى كل مدينة سوق (Agora) يتوسط المدينة عادة (٢) وعلى جانبية تقام الحوانيت التى تزخر بالبضائع المتنوعة بعضها مما اشتهرت به مصر من منتجات وصناعة ومواد تموينية ضرورية وبعضها الآخر من منتجات التجارة الخارجية .

وكان من المتبع ان كل فئة من التجار تعمل بتجارة معينة تجتمع فى مكان خاص بها فى السوق ، فتجار الأقمشة بهم مخازنهم فى نطاق السوق يعرضون فيه منتجاتهم من الأقمشة والتجار الصوفية والكتانية وتجار الفخار لهم منطقتهم التى يعرضون فيها أوانيهم وجرارهم وهكذا .

---

(١) نظم عملهم قانون ثيودوسيوس C.Th.XII.5.1,2

(٢) أنشئت أغلب المدن فى العصر البطلمى على النسق اليونانى حيث تتوسط السوق المدينة (Agora) ولقد ظلت المدن محتفظة بطرازها المعمارى خلال العصر الرومانى والبيزنطى .

وكان من الممكن لفرد أومجموعة الحصول على امتياز تأجير منطقة التجارة لصالحهم مقابل مبلغ من المال يسدد للدولة وكان يتم الحصول على هذا الامتياز عن طريق مزايدة عامة (١) فحصل بالبيع بطور على المكان المخصص لتجارة العطور في اكسرنخوس وكان يحق له التأجير من الباطن لمن يرغب من التجار في مقابل مبلغ مالي . ونفس الأمر بالنسبة للحوانيت التي تملكها الدولة في السوق فيتم تأجيرها عن طريق مزايدة عامة وعطاءات كما حدث في تأجير أحد حوانيت اكسرنخوس " البهنسا " فيتقدم الأفراد بعطاء انهم وأعلاها نسبة هو الذي يلقى القبول على أن يتعهد بتسليم المكان بلا أي تلفيات بعيد انتهاء المدة وان كانت هناك حوانيت تملكها الأفراد ملكية خاصة . فقام شخص بتأجير حانوت في السوق لمدة ستة أشهر في القرن الخامس بمبلغ قدره ٢٢٥٠ دراخمة .

وكان العمل بالتجارة يتطلب موافقة الدولة ، فعلى الشخص الذي يرغب في مزاولة التجارة أن يتقدم بطلب رسمي الى كاتب المدينة exegetes (٢) يطلب فيه السماح له بمزاولة تجارته ويحدد نوعيتها والهدف من هذا الاجراء حصر عدد التجار وفرض الضرائب عليهم .

وأول الأسواق التي أقيمت في مصر على النسق اليوناني كانت في نقراطيس كوم جعيف (٣) حيث أنشأ الاغريق سوقا عامة بل كانت هناك أكثر من سوق وأشار " هيرودوت " لوجود قناصل تجاريين وهم أقرب الى مراقبي الأسواق وان بدا سوقها يفقد أهميته بعد انشاء الاسكندرية ، ومن المؤكد أن سوق مدينة الاسكندرية كان أشهر الأسواق الداخلية في مصر قاطبة ولقد ذكر بروكيبوس ان الوالي هيفستوس جعل جميع حوانيت الاسكندرية احتكارا حكوميا وأدى هذا لزيادة دخل الامبراطور " جستنيان " وفي كانوب أقيمت سوق أخرى

---

(١) P. Oxy. 50- 1139- 1108

(٢) كانت له اختصاصات ادارية متنوعة ولاسيما مايتعلق بالشئون القانونية . بل/ مصر من الاسكندر ، ترجمة عبد اللطيف أحمد ، ص ١٤٠

(٣) أسسها تجار ميلتوس حوالى مطلع القرن السابع ق.م على فرع النيل الكونوبي قرب قرية كوم جعيف الحالية بمركز ايتاى البارود. وأصبحت في عهد امانيس المقر الوحيد للتجار الاغريق هيرودت ص ٣١٠

ذكرهـــا استرابـــون . (١)

ووجـدت ســوق فـى كـل مـدينـة تقـريبـا فـورد ذكـر أسـواق تانيـس واكسيرنخـوس البهنسا وهيرموبوليس الاشمونيين " وانطونيوبـولـس " الشيخ عبادة " ومازالت بقايا بعـض تلـك الأسـواق قـائمـة الـى الآن .

وكـان أهـم مايشغـل الـدولـة تـوفيـر المـواد الغـذائيـة فـى الأسـواق والجـد مـن جشع التجار وضمـان ضرائبهـا فـى نفس الـوقت وانتظـم التجـار كغيرهـم مـن الطوائـف فـى نقابـات فنقابـة لتجـار الخبـز وأخـرى لبائعـى الجعـة وثالثة لتجـار الزيت والتبيـذ ..... الـــخ .

وأجبـرت الدولـة التجـار علـى عـرض جـزء مـن سلعلهـم بالسـوق واعـلان قائمـة شهـريـة بالأسعار كانـت تـرفـع اعتبـارا مـن القرن الرابـع الى الوالى وأحيـانا الى مراقـب الأسـواق Logistes (٢) وهـو المسئول عن امداد المدينـة بالطعام .

وكان لكل نقابـة رئيـس يتولى عمله لمده شهر واحد وعليه العمل لصالـح طائفتة وهـو مسئول أمام الدولـة عـن أفـرادهـا حتى ان الأوامر الخاصة بامداد السـوق بالمـواد الغذائية ترسـل اليه رأسـا كالأمر الـذى صـدر مـن

مراقب الأسـواق فـى اكسيرنخـوس الى رئيس رابطـة بائعى الخضر بتسليم السـوق كميـة مـن الخضـر مـن مسئول السـوق الـى الرئيس الشهـرى لبائعى الخضر" اعط اركاديوس مقـدارا مـن الخضـر " (٣) ونفـس الأمـر تكـرر بالنسبة لبائعـة البيض والبسـت والخنازيـر ونجـارى العمـل . (٤)

ورغـم اشـراف الدولـة المستمر على الأسـواق فـان الأسعـار أخـذت فـى الارتفـاع وفـى نفس الـوقت أخـذت قيمـة العملـة فـى الهبـوط ولذلك فـان " دقلديـانوس أمـــام

---

(١) استرابون فـى مصر ترجمة وهيب كامـل ، السوق الكانوبية تستعمل كسوق للبضائع ص ٧٨

(٢) Logistes مراقب الأسـواق كـان مـن الـوظـائف التى تتعلق بالخدمـة الملكيـة زمـن البطالمـة ثـم أصبـح عملـه فـى العصـر الرومانـى يتعلـق بمراقبـة الأسـواق واعمـال المصـارف الماليـة وضمـان الجبايـة .

(٣) P. Oxy. 1139

(٤) P. Oxy. 1145

الغلاء الفاحش الذى ساد الولايات أصدر مرسومه الشهير بتحديد الأسعار سواء بالنسبة للتجارة أوالحرف ولم يترك المرسوم كبيرة أوصغيرة والاتعرض لها وذكر الامبراطور فى ديباجة القانون ان السبب الرئيسى الذى جعله الى اصداره " أن هناك قلة تملكها الجشع بحيث لم تعد تأبه لما يحيق بالجنس البشرى من الشر وكلما زادت المعاناة ازداد جشعهم وأموالهم فكان لابد من قمعهم بالقانون (١) ولقد وضع الامبراطور عقوبات رادعة للمخالفين وصلت الى الموت ولقد طبق هذا المرسوم أيضا على التجار الأجانب الذين يزاولون فنون الحيوانى التابعة للامبراطورية ورغم ذلك فبعد سنوات قليلة من تطبيقه جرى تجاهله وعادت الأسعار الى ارتفاعها بل ان تسعيرة المواد التموينية الضرورية للفرد اختلفت فى مصر خلال العصر البيزنطى من اقليم الى اقليم بل فى نفس الاقليم ومن سوق لسوق ومن تاجر الى تاجر واذا استعرضنا قائمة أسعار المواد الحيوية والضرورية للفرد وهى المواد التموينية خلال العصر البيزنطى لوجدنا تفاوتا عجيبا مع ملاحظة ان قيمة العملة وقوتها الشرائية تختلف هى الأخرى من فترة لفترة كذلك نلاحظ الارتفاع الواضح فى نسبة الأسعار.

الحبوب والبقول :

فاذا أخذنا كمثال أسعار الحبوب والبقول كانت البقول والحبوب أهم المواد التى تقبل عليها السوق المحلية فمنها يصنع الخبز المادة الرئيسية فى طعام الشعب وأسعارها الواردة وفقا لمرسوم دقلديانوس هى كما يلى :(٢)

القمح	المد الحربى	١٠٠ دينار
الشعير	،،	٦٠ ،،
ذرة عويجة	،،	١٠٠ ،،
دول مجروش	،،	١٠٠ ،،

(١) Diocletian 's Ediot on Maximum Prices.

(٢) كان الوزن بالمد الحربى وكانت العشرين ٢٠ تعادل ٦ أردب

العـــــدس	المد الحربـــى	٦٠ دينـــار
قطانى غير مدشوشة	،، ،،	٦٠ دينـــار
أرز	،، ،،	٢٠٠ دينـــار
شعير نقى مطحـون	،، ،،	١٠٠ دينـــار
السمســـــــم	،، ،،	٢٠٠ دينـــار

وقد جرى القاضى عن هذه القيمة بعد عهده ولو أخذنا أسعار القمح مثلا فى الفترة بين ٣١٢ ـ ٣٢٨م وقارناها فى عدد من المدن لوجدنا اختلافا بينا فى نسبتها ٠

ففى ٣١٢م بيع المد بـ ١٠٠ درهمة فى كرانيس "كوم اوشيم" فى حين بيع فى فلادلفيا "كوم الخرابة" فى نفس الفترة بـ٣٠٠٠ درهمة (١) وفى هيرموبولس الاشمونين بـ ١٠ آلاف درهمة وفى الاسكندرية بيع الاردب بـ ١٢ تالنت فضة وفى اكسرنخوس بيع الاردب بـ ٢٤ تالنت وفى القرن السادس بيع ٣٠ اردب بصولد فى حين بيع فى الاسكندرية ١٠ اردب بصولد وفى هرموبولس الاشمونين ١٢ ـ ١٥ اردب بصولد وفى افروديتو "كوم اشقره" ٨ اردب بصولد ٠

أما الشعير فقد بيع الاردب فى ٣١٤ ـ ٣١٥م فى كل من هيرموبولس وكرانيس وفيلادلفيا بـ١٠ آلاف درهمة وفى القرن السادس تم بيعه فى افروديتو الاردب بقيراط وبيع فى فترة مقاربة فى نفس المدينة ١٢ اردب بصولد الا ٣ قيراط أى أقل من قيراط اى ان السعر فى نفس المدينة اختلف وفى القرن السابع ١٥ اردب تمنم صولد الا ٦ قراريط٠ أما الفول فكان ثمن بيعه فى القرن الرابع ٨٠ درهمة من الاردب فى القرن الخامس كل اردب ثمنه قيراطين ٠

الضـــرائـــــب :

أما الضرائب على البضائع التى تباع فى الأسواق فقد اختلفت هى الأخرى من اقليم لاقليم وكانت الضرائب تسدد شهريا وبلغت مايقرب من $\frac{1}{12}$ من ثمن البضاعة فيما عدا النبيذ وفى اربينوى دفعت الضرائب على النحو التالـــــى :

(١) P. Lond. 199 ,P, oxy 85

بائع النبيذ ٨ درخمة شهريا وبائع العطور ٦٠ درخمة ـ الخباز ٨ درخمة بائع التوابل ٣٦ درخمة ، بائع الجعة ١٦ درخمة ، بائع القصدير ٦ درخمة البائع المتجول ١٢ درخمة ، وفى استراكاورد (٢) ذكر ضرائب مقدارها ٣٪ من الثمن أخذت على مقابل بيع ثور وخشب وكذلك كانت تجبى ضرائب نظير احتراف التجارة وابرام العقود والمعاملات التجارية والإنتفاع بالأسواق .. (٣).

وفرضت على التجار وأصحاب الحوانيت ضريبة عرفت باسم الذهب والفضة chrysurgroin ووردت فى قوانين جستنيان Digest 2.111.2-21 وكانت النقابة هى المسئولة عن جمعها من اعضائها وتسليمها لخزانة الدولة ولقد فرض قسطنطين ضريبة تقدر كل خمس سنوات على بعض أنواع التجارة والحرف كتجارة الزيت تجبى سنويا مقدارها ٢٠٠ دينار وكانت النقابة تتولى أيضا جمع الضريبة ودفعها والفاهنا انستاسيوس ولكن ورد فى القرن السادس عودة نقابات التجار لدفع الضرائب ولقد دفع التجار عددا من الضرائب العينية فقام جزار بدفع أربعة اردب ، وجبيت ايضا ضرائب استثنائية فى حالة انتقال الفرق العسكرية (٤) أو زيارة الوالى ، فحين قام أحد الولاة بزيارة هيرموبولس "اشمونين" دفع ١٣٥ شخصا ضرائب عينية كالخبز والسمك والبقول والنبيذ وعلف المواشى والوقود لصالح تلك الزيارة وقام تاجر دجاج بتقديم ٤ دجاجات لزيارة مشابهة . (٥)

---

(٢) P .oxy. 2139

(٣) Milne: OP. Cit. P. 161.

(٤) P. oxy. 1331

(٥) P. oxy. 2139

المصادر والمراجع

أولا : البرديات

1- Catalogue of the Greek Papyri in the John Rylands library vol.4. Manchester, 1952.

2- A Descriptive catalogue of Greek papyri in the wilfred merton vol.1. by Idris Bell ch Roberts London.

3- Michigan papyri collection John corrett I-G-Winter, univ Michgan,1936.

4- Oxyrhnchus papyri, Ed-B- Grefell A.S. Hunt, 52 vols London 1899-1972

5- P.London Greek Papyri Britsh Museum by F.G.Keynon and Hill 5 vols London 1893 .

6- Roman civilization : the record civilization sources and studies columbia .

7- The Tehtunis Papyri Ed Bernard Grenfell, London, 1902.

8- Bell,H.I, The Byzantine servile state in Egypt journal of Egyption Archaeology vol-av-London, 1917.

9- Bury,I,B- History of the later Roman empire 2 vols London, 1923.

10-Codex justinianus ed.p.Krueger London, 1958.

11-Codex theadasions Ed.Momun and Mayer , London, 1905.

12-Pieh c.: L'Egypte chretienne it Byzantine (Hunnatiau Histoire de la Nation Egyptienne vol " "

13-Hardy E.r- the large estatus of Byzantine Egypt.N , 1931.

14-Johnson.A.ch.Byzantine Egypt economic studies princton 1949.

15-Maspero,J: organisation Miltairo de l'Egypte Byzantine Paris 1912.

16-Milne J,G - A History of Egypt under roman rule London 1924.

17-Wallace S.L.Taxation in Egypt princeton 1936.

المراجع العربية

١- ابراهيم نصحى — تاريخ مصر فى عهد البطالمة، القاهرة ١٩٦٦م

٢- استرابون — استرابون فى مصر ترجمة رجب كامل ـ القاهرة ١٩٥٢م

٣- ايدريس بل — مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ترجمة عبد اللطيف أحمد على على ومحمد مراد حسين القاهرة ١٩٥٤م

٤- الباز العريني — مصر البيزنطية القاهرة ١٩٧٧م

٥- لطفى عبد الوهاب — مصر فى العصر الرومانى الاسكندرية ١٩٨١م

٦- مصطفى العبادى — الأرض والفلاح فى مصر على مر العصور الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـ القاهرة، ١٩٧٤م

٧- مصطفى كمال عبد العليم — الأرض والفلاح فى مصر على مر العصور الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـ القاهرة ١٩٧٤م .